التصوير البلاغي في مشاهد القيامة القرآنية

د. الحارث عبدالقادر عوض الكريم حمد•

ملخـــــص

البحث تناول أمراً مهماً ألا وهو مشاهد القيامة القرآنية من منظور بلاغي ، إذ كان الموضوع معتمداً على الآيات القرآنية التي تصف لنا مشاهد القيامة ،فقد قام الباحث باستقرائها وتحليلها ليستخرج منها الصور البلاغية التي اشتملت عليها . وكان عنوان البحث التصوير البلاغي في مشاهد القيامة القرآنية . فقد قام الباحث بتقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث : المبحث الأول تحدث فيه عن تصوير البعث والنشور في مشاهد متنوعة ، وفي المبحث الثاني قام بوصف النعيم والعذاب ثم كان المبحث الثالث و الأخير عن الجدل و الحوار في مشاهد القيامة القرآنية، وتتمثل أهداف البحث في استقراء النصوص القرآنية التي تناولت مشاهد القيامة القرآنية وصف مشاهد القيامة القرآنية حسا ومعنى و تحديد الصور البلاغية البيانية التي تصف مشاهد القيامة القرآنية . كما ترجع أهمية البحث لتناوله مشاهد غيبية باعتبارها أمرا واقعا لا محالة مجسدا هذه المشاهد عن طريق الصور البلاغية فتصبح كأنها حاضرة مشاهدة للعيان .

قام الباحث بالرجوع للتفاسير و الكتب التى اهتمت بالإعجاز البلاغي في القرآن الكريم خاصة الجانب البياني ، لذا كانت هذه المصادر و المراجع عمدة البحث ، إضافة إلى جهود الباحث في استخراج و تحديد بعض الصور البلاغية و ترجيح بعض الآراء ، ومن الكتب التي استوقفتني مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب الذي اهتم بالجانب الفني دون الخوض في التفاصيل

• أستاذ أصول التربية المشارك – كلية التربية – جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم.

البلاغية ، و قد كان للسابقين من أهل البلاغة الأثر الكبير على الباحث من استقراء النصوص ، و استخراج الصور البلاغية المتنوعة.

Abstract

This research deals with an important matter, namely, the Qur'anic resurrection scenes from a rhetorical perspective, as the topic was based on the Qur'anic verses that describe the scenes of the Resurrection, so the researcher extrapolated and analyzed them to extract from them the rhetorical images that included them. The title of the research was the rhetorical representation of the Qur'anic resurrection scenes. The researcher divided the research into three sections: The first one talked about portraying the resurrection and resurrection in various scenes, and in the second one I described bliss and torment, and then the third and final topic was on controversy and dialogue in the scenes of the Qur'an's resurrection.

The researcher referred to the interpretations and books that were concerned with the rhetorical miracles in the Noble Qur'an, especially the rhetorical aspect, so these sources and references were the mayor of the research, in addition to the researcher>s efforts to extract and identify some rhetorical images and favor some opinions, and from the books that stopped me scenes of the resurrection in the Qur'an Sayyid Qutb, who was interested in the artistic side without going into the rhetorical details, had a great influence on the researcher from the extrapolation of texts and the extraction of various rhetorical images.

.

مقدمـــــــة

جاء في لسان العرب : "و يوم القيامة يوم البعث ، و في التهذيب القيامة يوم البعث يقوم فيه الخلق بين يدي الحيّ القيوم ، و في الحديث ذكر يوم القيامة في غير موضع ، قيل أصله مصدر قام الخلق من قبورهم قيامة[1].

ومن خلال استقراء النصوص القرآنية نجد عدة أسماء للقيامة منها : يوم القيامة كما في قوله تعالى : ﴿ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وكذلك من الأسماء اليوم الآخر كما في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

ومن الأسماء التي تحمل مفردة الساعة كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [طه: ١٥]، ويوم البعث: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ

(١) لسان العرب ، ابن منظور، دار صادر بيروت، ج١٢، ص٤٩٦.

طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥]، وكذلك القارعة قال تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ • مَا الْقَارِعَةُ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١-٣].

وقد عدَّها الغزالي و القرطبي فبلغت خمسين اسماً كما يقول ابن حجر العسقلاني "[1].

أسباب اختيار موضوع البحث :

أولاً : تحديد المشاهد التي تصف شدة هول ذلك اليوم و ما يصاحبه من رهبة و فزع والكل يصيح نفسي نفسي.

ثانياً: التمييز والمقارنة بين النعيم والعذاب.

ثالثاً: معرفة أسلوب الجدل والحوار من خلال المشاهد المختلفة .

لذا كان عنوان البحث: التصوير البلاغي في مشاهد القيامة القرآنية.

وقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى ثلاثة مباحث ، المبحث الأول بعنوان تصوير البعث والنشور، والمبحث الثاني وصف النعيم والعذاب و المبحث الثالث و الأخير بعنوان أسلوب الجدل و الحوار في مشاهد القيامة .

منهج البحث :

اتبعت المنهج الاستقرائي الوصفي و التحليلي في استخراج الصور البلاغية .

سائلاً الله عزَّ وجلّ أن ينفعنا و ينفع به إنه ولي ذلك و القادر عليه .

(١) القيامة الكبرى ، المكتبة الشاملة ، ج١ ، ص١.

المبحث الأول

تصوير البعث والنشور

مفهوم البعث والنشور:

ما معنى البعث والنشور؟ هل هما بمعنى واحد أم هنالك فرق بينهما؟.

جاء في معجم الفروق اللغوية عن الفرق بين البعث والنشور: " أنّ بعث الخلق اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف و منه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢]، و النشور اسم لظهور المبعوثين و ظهور أعمالهم للخلائق "[١] ونجد في معظم المعاجم اللغوية أنهما بمعنى واحد .

قال صاحب الصحاح : " و بعث الموتى نشرهم ليوم البعث "[٢].

وفي لسان العرب لابن منظور : " ... وبعث الموتى ، نشرهم ليوم البعث ، وبعث الله الخلق يبعثهم بعثاً نشرهم "[٣].

وفي المعجم الوسيط : " النشور، بعث الموتى يوم القيامة "[٤].

لاشك أن البعث والنشور يبدأ بعد النفخة الثانية كما ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨]. ومن هنا تنوعت المشاهد وتعددت الصور التى تصف شدة ذلك وهوله ، وفيه ما فيه من مواقف يشيب لها الولدان وتقشعر منها

(١) معجم الفروق اللغوية الذي يشتمل علي معجم أبي هلال العسكري ، مؤسسة النشر الإسلامي ، ط١١، ١٤١٢هـ ،ج١ ، ص١٠٣.

(٢) الصحاح للجوهري ،ج ٢ ، ص٢٩٥ ، (تاج اللغة وصحاح العربية) إسماعيل حماد الجوهري ،دار العلم للملاين بيروت ،ط٤، ١٩٩٠م.

(٣) لسان العرب ، ابن منظور، ج٣،ص١١٦.

(٤) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة ، إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ،ج٢، ص٧٩٦.

الأبدان ، و تنفطر لها القلوب ، وتذهل منها العقول فيا له من يو م لا مفرّ منه، و لا ملجأ من الله إلا إليه . فمن مشاهد ذلك اليو م ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ • وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤-٥].

ومثله قوله: ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

جاء في تفسير الزمخشري في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]: "تشبيههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة ، والتطاير إلي الداعي من كل جانب ، كما تتطاير الفراش إلى النار "(١). وفي صفوة التفاسير : " من التشبيه المرسل المجمل "(٢).

وفي قوله تعالى : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، قال البيضاوي : " كالصوف المصبوغ ألواناً ، لأن الجبال مختلفة الألوان ، وإذا بسّت وطيّرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيّرته الريح "(٣).

وفي ظلال القرآن : "وتبدو الجبال التي كانت ثابتة كالصوف المنقوش الذي تتقاذه الرياح وتعبث به ختى الأنسام ، فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ و الجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها، ومع آثار القارعة في الناس و الجبال سواء "(٤).

كما تصير الجبال كثيباً مهيلاً قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤]، جاء عن ابن كثير: " أي تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجاراً صماء ، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا

(١) الكشاف للزمخشري ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ج٤ ، ص٧٩٦.
(٢) صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، ج٣، ص٥١٨م.
(٣) تفسير البيضاوي ، دار الفكر بيروت ، ج٥ ، ص٣٨٨.
(٤) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج٨ ، ص٨٧ ، ترقيم المكتبة الشاملة .

ذهب حتي تصير الأرض قاعاً صفصفاً لاترى فيها عوجاً أي وادياً ولا أمتاً أي رابية "[1].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨]، جاء في تفسير القرطبي : "وهي تمر مر السحاب ، قال ابن عباس : أي قائمة وهي تسير سيراً حثيثاً[2]، وقال تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ: ٢٠]، وفي تفسير الطبري: "ونسفت الجبال فاجتثت من أصولها، فصيرت هباءً منبثاً لعين الناظر، كالسراب الذي يظن من يراه من بعد ماء وهو في الحقيقة هباءً "[3]. ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ • مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ٧-٨]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤].

جاء في تفسير القرطبي : "فأوّل حالهم كالفراش لا وجه له ، يتحيّر في كل وجه ثم يكونون كالجراد ، لأن لها وجهاً تقصده "[4].

وجاء عن الزمخشري قوله : "الجراد مثل في الكثرة والتموّج ، يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض ، جاءوا كالجراد وكالدبا منتشر في كل مكان لكثرته (مهطعين إلى الداع) مسرعين مادي أعناقهم ، وقيل ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم "[5].

(١) تفسير ابن كثير ، دار الفكر ، ج٤ ، ص٥٢٧.
(٢) تفسير القرطبي ، ج١٣ ، ص٢٤٢.
(٣) تفسير الطبري، ج٢٤ ، ص١٨٥.
(٤) تفسير القرطبي، ج٢٠ ، ص١٦٥.
(٥) تفسير الزمخشري ، ج٤ ، ص٤٣٣.

ومما لا شك فيه هذا وشبهه عند البلاغيين يطلق عليه تشبيه التمثيل .

وعن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]، جاء في تفسير البيضاوي: "كأنهم إلى (نصب) منصوب إلى العبادة ، و (عَلَم) يوفضون (يسرعون) و قرأ ابن عمر وحفص إلى نصب بضم النون والصاد ، والباقون من السبعة بفتح النون وسكون الصاد ، وقرئ بالضم على أنه تخفيف (نصب) أو جمع [١].

وفي تفسير الصابوني: "أي كانهم يسعون ويستبقون إلى أصنامهم، التي نصبوها ليعبدوها ، شبّه حال إسراعهم إلى موقف الحساب ، بحال إسراعهم وتسابقهم في الدنيا إلى آلهتهم ليعبدوها ، وفي هذا التشبيه تهكم بهم ، و تعريض بسخافة عقولهم"[٢].

وهنالك مشهد مخيف ومرعب للنفوس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ • يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

هذا المشهد الرهيب و الهول العجيب تنسى فيه المرضعة طفلها الرضيع وتنزع عنه ثديها مع شدة عاطفة الأمومة ، فيا له من يو م عصيب ، يو م ترونها كما تضع الحوامل أحمالها من عظم هذه اللحظات ، ويتواصل المشهد في وصف منظر الناس وكأنهم سكارى . وقال صاحب الكشف والبيان : " قال الحسن معناه وترى الناس سكارى من الخوف و ما هم بسكارى من الشراب ، وقال أهل المعانى : مجازه وترى الناس كأنهم سكارى"[٣].

(١) تفسير البيضاوي ، ج٥ ، ص٣٩١.
(٢) صفوة التفاسير للصابوني ، ج٥ ، ص٣٩١.
(٣) الكشف والبيان ، ج٧ ، ص٦ . .

وقال الزمخشري : " وتراهم سكارى علي التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطيّر تمييزهم ، و ردهم نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه "(١).

وكذلك من مظاهر هذا اليوم أن صارت السماء وردة كالدهان كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٧].

جاء في صفوة التفاسير : "أي وكانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار ومثل الأديم الأحمر أي الجلد الأحمر ، قال ابن عباس ، وذلك من شدة الهول ، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم"(٢).

ولتقف مع مشهد آخر في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ [المزمل: ١٧].

جاء للزمخشري: "مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد يشيب نواصي الأطفال، والأصل فيه أن الهموم و الأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب"(٣).

وفي أضواء البيان : "إن ذلك كناية عن شدّة الهول ، و مثل ذلك من أساليب اللغة العربية المعروفة"(٤).

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢]، جاء في تفسير الزمخشري: "في معنى يوم يشتد الأمر و يتفاقم ، و لا كشف ثمّ ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح يده مغلولة ، ولا يد ثمّ ولا

(١) تفسير الزمخشري ، ج٣ ، ص١٤٤.
(٢) صفوة التفاسير ، ج٣، ص٢٩١.
(٣) الكشاف للزمخشري ، ج٤ ، ص٦٤٢.
(٤) أضواء البيان ، ج٤ ، ص٢٦٠.

غل ، و إنما هو مثل في البخل"[1].

وفي صفوة التفاسير: "كناية عن شدة الهول، وتفاقم الخطب يوم القيامة"[2].

وجاء في الإتقان في علوم القرآن: "عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ قال : إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب . أما سمعتم قول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق

ومعناه عن شدّة وأمر عظيم ، كما يقال قامت الحرب على ساق[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]، جاء في تفسير الرازي : "... المسألة الثانية : اختلفوا في أن المراد من قوله: ﴿ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ كناية عن شدة الخوف، أو هو محمول على ظاهره، وقيل المراد وصف ذلك اليوم بشدّة الخوف والفزع ، و نظيره قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [الأحزاب: ١٠][4].

وفي تفسير الطبري : "إذ قلوب العباد من مخافة عقاب الله حناجرهم قد شخصت من صدورهم ، فتعلقت بحلوقهم كاظمها ، يرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم فلا ترجع ، ولا هي تخرج من أبدانهم فيموتوا"[5].

﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ • وَخَسَفَ الْقَمَرُ • وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [القيامة: ٧-٩].

(١) الكشاف للزمخشري ،ج٤،ص٥٩٨.
(٢) صفوة التفاسير، ج٣، ٣٩١.
(٣) الاتقان في علوم القرآن، السيوطي ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤مج٣،ص٢١.
(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢١هـ/٢٠٠م ، ط١ ، ج٢٧،ص٤٤.
(٥) تفسير الطبري ، ج٢١،ص٣٦٨.

قال سيد قطب : "... وكان مشهداً من مشاهد القيامة تشترك فيه الحواس والمشاعر الإنسانية و المشاهدة الكونية ... فالبصر يخطف و يتقلب سريعاً سريعاً تقلب البرق و خطفه ، و القمر يخسف و يطمس نوره و الشمس تقترن بالقمر بعد افتراق ، ويختل نظامهما الفلكي المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكوني الدقيق ، وفي وسط هذا الذعر و الانقلاب يتساءَل الإنسان المرعوب : (أين المفر ؟) ويبدو في سؤاله الارتياع و الفزع و كأنما ينظر في كل إتجاه فإذا هو مسدود دونه مأخوذ عليه ، أو لا ملجأ ولا وقاية و لا مفر من قهر الله و أخذه والرجعة إليه و المستقر عنده ، ولا مستقر غيره ، كلا لا وزر، إلى ربك يومئذٍ المستقر"[1].

المبحث الثاني

وصف النعيم والعذاب

تنوعت أوصاف النعيم والعذاب فأحياناً يكون الوصف حسياً و تارة أخرى يكون وصفاً معنوياً ، و أحياناً يمزج بينهما لنقف مع بعض مشاهد النعيم في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، قال تعالى في سورة الواقعة عن أصحاب اليمين: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ • فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ • وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ • وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ • وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ • وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ • لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ • وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ • إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً • فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً • عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٧].

قال سيد قطب : "كذلك يتجسم النعيم المادي المحسوس في مثل هذه الصورة (يعني الآيات المذكورة) و هو نعيم تتمتع به البطون و الأجسام و

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ،ج٧،ص٤٠٤، ترقيم المكتبة الشاملة .

تلتلذه الجوارح و الأبدان[1].

وفي المقابل نجد مشهد العذاب في نفس السورة لأصحاب الشمالّ في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ • فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ • وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ • لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ • لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ • فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ • فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ • فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ • هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦].

فهذه الآيات تؤكد على شدة وفظاعة العذاب الذي يلاقيه أصحاب النار جزاءً لما اقترفوه في الدنيا".

إذا عدنا لأصحاب النعيم نجدهم يعيشون في سعادة و حبور ينعمون بما لذّ وطاب فنجد وصفاً في سورة الواقعة للسابقين في قوله تعالى: ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ • مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ • يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ • بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ • لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ • وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ • وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ • وَحُورٌ عِينٌ • كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ • جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا • إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ١٥-٢٦]. ثم كان الحديث عن أصحاب اليمين الذين سبق ذكرهم.

ولنقف في وصف الحور العين، وصف نساء أهل الجنة، في قوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ • كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ • جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا • إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا • وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ • فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ • وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ • وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ • وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ • وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣].

(١) مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٥، ص٥٢-٥٣.

جاء في صفوة التفاسير: "أي كأمثال اللؤلؤ في بياضه و صفائه ، حذف وجه الشبه فهو تشبيه مرسل مجمل"(١) و قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩].

جاء في الكشف و البيان: "... قال الحسن و ابن يزيد شبههن ببيض النعامة تكنه بالريش من الريح و الغبار ، وقيل شبههن ببطن البيض قبل أن يقشر ، و هو معنى قول ابن عباس "(٢).

وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، "... يعني في الصفاء كالياقوت ، وفي البياض كالمرجان "(٣).

وجاء عن الفخر الرازي : " إشارة إلى صفائهن في الجنة ، فأول ما بدأ بالعقليات و ختم بالحسيات ، كما قلنا إن التشبيه لبيان مشابهة جسمهن بالياقوت و المرجان في الحمرة والبياض "(٤).

وفي سورة (ص) وصف لحال المتقين في قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ • جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ • مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ • وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ • هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ • إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٤٩-٥٤].

ومشهد آخر يقابل نفس المشهد عن الطاغين الذين مان مصدرهم النار قال تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ • جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ • هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ • وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٥-٥٨].

(١) صفوة التفاسير، ج٣، ص٣٠٥.
(٢) الكشف و البيان، ج٨،ص١٤٤.
(٣) بحر العلوم ، أبو الليث السمرقندي الحنفي ، دار الفكر بيروت ، ج٣،ص٣٦٦.
(٤) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ،ج٢٩،ص١١٤.

قال سيد قطب: "يبدأ المشهد هنا بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع و في الأجزاء ، وفي السمات و الهيئات منظر (المتقين) لهم حسن مآب ، ومنظر الطاغين لهم شر مآب ، فأما الأولون فلهم جنات مفتحة الأبواب ، ولهم فيها راحة الاتكاء و متعة الطعام و الشراب ، ولهم كذلك متعة الشباب في الحوريات و كلهن أتراب شواب ، وهنا مع هذا قاصرات الطرف ... و أما الآخرون فلهم مهاد ، و لكنه لا راحة فيه فهو جهنم ، فبئس المهاد " و لهم فيه شراب ساخن و طعام مقيء ، إنه ما يغسق و يسيل من أهل النار ، ولهم أصناف أخرى من شكل هذا العذاب "(١).

وهنالك مشهد في سورة الزمر يصف الكفار و هم يساقون إلى النار، وفي المقابل، سيق الذين اتقوا ربهم إلي الجنة، فقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

قال سيد قطب:"و إذا تم الحساب و عرف المصير وجه كل فريق إلى مأواه، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا، حتي إذا وصلوا إليها بعيداً استقبلهم خزنتها بتسجيل استحقاقهم لها، وتذكيرهم بما جاء بهم إليها ... وكذلك وجه الذين اتقوا ربهم إلى الجنة، حتى إذا وصلوا هناك استقبلهم خزنتها بالسلام و الثناء: "سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين" وهيمنت أصوات أهل الجنة بالحمد والثناء"(٢).

وفي سورة آل عمران نجد وصفاً لأهل الجنة و أهل النار في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

(١) مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ،ص٩٨.
(٢) مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ،ص١٧٠.

فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ • وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

قال سيد قطب:" ... نرى فيه منظراً عجباً، نرى وجوهاً مسودة، ووجوهاً مبيضة، ولابد أننا نعرف الآن لمن الوجوه المسودة، ولمن الوجوه المبيضة، وهو مشهد حسّي، ولكنه منبعث عن تأثير نفسي ألقى ظله على هذه الوجوه فابيضت، و على تلك الوجوه فاسودت ... و هذا و ذاك زيادة في العذاب والنعيم، وفي التحقير والتكريم "(١).

وهناك أوصاف اختصت بها نار جهنم من تغيظ وزفير وغضب، فقال تعالى: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ • تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٧-٨].

قال الرماني:"شهيقاً حقيقته صوتاً فظيعاً كصوت الباكي، والاستعارة أبلغ منه وأوجز والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت. (تميز من الغيظ) حقيقته من شدة الغليان بالاتقاد والاستعارة أبلغ منه، لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس مدرك مدى ما يدعو إليه من شدة الانتقام، فقد اجتمع شدّة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، وفي ذلك أعظم الزجر، وأكبر الوعظ، وأدلّ دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان: ١٢]. أي تستقبلهم للإيقاع بهم استقبال مغتاظ يزفر غيظاً عليهم "(٢).

وفي سورة السجدة نجد مقارنة بين مصير المؤمن والفاسق و عاقبة كل منهما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ • أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) المرجع السابق نفسه ، ص٢٣٧.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ، د محمد زغلول ، دار المعارف ، ط٨، ص٨٧.

الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ • وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ١٨-٢١].

قال الرماني عن العذاب: "حقيقته لنعذبنهم، والاستعارة أبلغ، لأن إحساس الذائق أقوى لأنه طالب لإدراك ما يذوقه، ولأنه جعل بدل إحساس الطعام المستلذ إحساس الآلام لأن الأسبق في الذوق ذوق الطعام"(١). ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء: ٥٦].

جاء في تفسير الطبري تصويراً لهذا المشهد: "... وقال آخرون، معنى ذلك كلما نضجت جلودهم سرابيلهم بدلانهم سرابيل من قطران غيرها فجعلت السرابيل من القطران لهم جلوداً كما يقال للشيء الحافي بالإنسان هو جلدة ما بين عينيه ووجهه وجلده لخصوصه، به قالوا في ذلك سرابيل القطران التي قال الله في كتابه: ﴿ سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴾ لما صارت لهم لباساً لا تفارق أجسامهم جعلت لهم جلوداً فقيل: "كلما اشتعل القطران في أجسامهم و احترق بدلوا سرابيل من قطران آخر" قالوا: "و أما جلود أهل الكفر من أهل النار فإنها لا تحترق لأن في احتراقها إلى حال إعادتها فناؤها وفي فنائها راحتها قالوا وقد أخبر الله تعالى ذكره عنها: "إنهم لا يموتون و لايخفف عنهم من عذابها"(٢).

(١) المرجع السابق نفسه، ص٩٣-٩٤.
(٢) تفسير الطبري، ج٨، ص٤٨٧.

المبحث الثالث

أسلوب الجدل و الحوار في مشاهد القيامة

ما المقصود بفهوم كلٍّ من الجدل والحوار ؟

جاء في كتاب التعريفات للجرجاني الجدل هو القياس المؤلف من المشهورات و المسلمات، و الغرض منه إلزام الخصم، و إقحام من هو قاصر عن إدراك مقدّمات البرهان دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجّة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة"(١).

وعن الحوار جاء في معجم أساس البلاغة: "وحاورته راجعته الكلام و هو حسن الحوار، وكلمته فما رد عليّ محاورة، وما أحار جواباً أي ما رجع (٢).

وفي لسان العرب: "والمحاورة المجاوبة، والتحاور التجاوب"(٣).

وكذلك نجد عن الجدل في الصحاح: "الجدل هو شدّة الخصومة "(٤).

و لكن من خلال اطلاعي على عدد من المعاجم اللغوية لم أجد إيضاحاً للجدل بنوعيه، فهنالك جدل محمود كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وجدل مذموم كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].

(١) التعريفات ، علي بن الجرجاني محمد بن علي ، دار الكتاب للعربي ، بيروت ، بيروت ، ط١٤٠٥، ج١، ط١٠١.
(٢) معجم أساس البلاغة للزمخشري ، ج١، ص١٩٧.
(٣) لسان العرب ، ابن منظور ، دار صلدر بيروت ، ط١، ج٤، ص٢١٧.
(٤) الصحاح ، الجوهري ، ط٤، ١٩٩٠، ج٥، ص٣٣٩. تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري.

نجد أسلوب الجدل و الحوار في مشاهد القيامة متنوعاً ، فأحياناً يكون بين أصحاب الجنة و أصحاب النار ، و أحياناً مع أهل الأعراف و تارةً أخرى بين أهل النار أنفسهم ، كما اختلف الأسلوب ما بين جدل و حوار حسب تنوع المشاهد .

لنقف مع مشهد في سورة (ص) في قوله تعالى: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ • جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ • مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ • وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ • هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ • إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٤٩-٥٤].

ومشهد آخر يقابله عن الطاغين : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ • جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ • هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ • وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ • هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ٨ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ • قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ • وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ • أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ • إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: ٥٥-٦٤].

قال سيد قطب : "يبدأ المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع ، وفي الأجزاء ، و في السمات و الهيئات ، منظر المتقين ، لهم حسن مآب ، و منظر الطاغين لهم شر مآب ... ثم يتم المشهد بمنظر ثالث يحييه الحوار ، ويشخصه للأنظار ، فها نحن أولاء أمام جماعة من أهل جهنم ، و قد كانت في الدنيا متوادَّة متحابَّة ، فهي اليوم متناكرة متنابذة ، كان بعضهم يملي لبعض في الضلال ، و كان بعضهم يتعالى علي المؤمنين و يهزأ من دعواهم في النعيم .

ها هم يقتحمون النار فوجاً بعد فوج ، هذا هو الفوج الأول ينقل إليه نبأ اقتحام الفوج الثاني : "هذا فوج مقتحم معكم" فماذا يكون الجواب؟ يكون لا مرحباً بهم ، إنهم صالوا النار ! "فهل يسكت المشتومون ؟ كلَّا ! فهم أولاء يردون: "قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم . أنتم قدمتوه لنا فبئس القرار" وإذا دعوة جامعة: "قالوا : ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار "! ثم ماذا ؟ ثم هاهم أولاء يفتقدون المؤمنين، الذين كانوا يتعالون عليهم في الدنيا، ويظنون بهم شراً، ويسخرون من أمانيهم في النعيم، فلا يرونهم معهم مقتحمين، وقالوا: ما لنا لانرى وجالاً لنا نعدهم من الأشرار ... أن ذلك لحق تخاصم أهل النار " و إننا لنشهد الآن هذا التخاصم كما لو كان حاضراً في العيان ، و إن كل نفس آدميَّة لتحس في حناياها وقع هذا المشهد ، و تتقيه و تحاذرُ ، لو ينفع الحذر أن تقع فيه !(١).

ونجد في سورة الأعراف مشهداً يتنوع فيه الحوار، يبدأ بعد أن استقر أصحاب الجنة في الجنة، مروراً بسؤال أهل الجنة لأهل النار، ثم حديث أهل الأعراف، ثم أصحاب النار لأصحاب الجنة وطلبهم أن يفيضوا عليهم مما رزقهم الله فيكون الرد بالرفض، وهكذا ينتهي المشهد، وهذه المشاهد المختلفة التي تنوَّع فيها أسلوب الحوار نجدها في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ • وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨-٣٩].

(١) مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ،ص٩٧-٩٩، بتصرف.

وقال تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ • الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ • وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ • وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ • وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ • أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ • وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ• الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٤-٥١].

قال سيد قطب: ربما كانت هذه أطول مشاهد القيامة وأحفلها بالمناظر المتشابهة والحوار المتنوع، وهي تجيء في السورة تعقيباً على قصّة آدم وخروجه من الجنة ، بإغواء الشيطان له و لزوجه وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة، وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته ... فإذا انتهى مشهد الاحتضار فنحت أمام المشهد التالي له في النار، فالزمان بين الاحتضار والبعث يطوى هنا طيّاً، وكأنما يؤخذ أولئك المحتضرون من الدار إلى النار ،" قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن و الإنس في النار " ... و لقد كانت هذه الأمم في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، يملي متبوعها لتابعها فلننظر اليوم كيف يكون الأحقاد بينها، وكيف يكون التنابز بينها : "كلما دخلت أمة لعنت أختها، فما أبأسها من عاقبة تلك التي يلعن فيها الأخ أخاه ! حتى إذا اداركوا فيها جميعاً

" و تلاحق آخرهم بأولهم ، و اجتمع قاصيهم بدانيهم، بدأ الخصام و الجدال "قالت أخراهم لأولاهم" ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار" ... و هكذا تبدأ المهزلة الأليمة ، و يتكشف المشهد عن الأصفياء و الأولياء و هم متناكرون أعداء يتهم بعضهم بعضا، ويـطلب له من (ربّنا) شرّ الجزاء. ومن(ربّنا) الذي كانوا من قبل ينكرونه ، وهم اليوم يتوجهون إليه بالدعاء، ولكنها طمأنة ساخرة و استجابة أليمة، قال : لكلّ ضعف ولكن لاتعلمون "... ثم يستمر العرض ثم نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق . لقد استقر أصحاب الجنة في الجنة ، وأصحاب النار في النار، وإذا الأولون ينادون الآخرين من هناك: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ " وفي هذا السؤال من التهكم المر ما فيه، فالمؤمنون على ثقة من تحقق الوعيد كتحقق الوعد سواء، ولكنه سؤال! ويجيء الجواب من هناك "نعم!" حيث لا مجال لنكران أو محال، وعندئذٍ ينتهي الجدل، ويغلق الحوار " (فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) ثم يتوجه النظر إلى جانب من الساحة ، ساحة العرض الفسيحة ، فإذا مشهد آخر، مشهد الأعراف، الفاصلة بين الجنة والنار، وكأنما هي نقطة مرور، يفرز فيها أهل الجنة و أهل النار، ويوجه كلٌّ إلى مستقره هنا أو هناك . وعليها رجال يعرفون هؤلاء وهؤلاء بسيماهم، فيوجهونهم إلى حيث هم ذاهبون، ويشيعون كلاًّ منهم بما يستحق من تحقير أو تكريم! وهولاء هم يتوجهون إلى أهل الجنة بالترحيب والسلام، ويتوجهون إلى أهل النار بالتبكيت والإيلام : ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ . أنظروا أين هم الآن ؟ أنهم في الجنة يتلقون السلام! وأخيراً ها نحن أولاء نسمع صوتاً آتياً من النار ملؤه الرجاء والذلة والاستجداء : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ

النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠]. (١)

وهناك مشهد من مشاهد الحوار في سورة الصافات ، قال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ • قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ • قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ • وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ • فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ [الصافات: ٢٧-٣١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ • قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِي كَانَ لِي قَرِينٌ • يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ • أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ • قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ • فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ • قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ • وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ • أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ • إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الصافات: ٥٠-٥٩].

قال سيد قطب: " ... لنرى مشهدهم يجادل بعضهم بعضاً : "وَأَقْبَلَ بَعْضهمْ عَلَى بَعْض يتساءلون... عن اليمين" أي توسوسون لنا عن يميننا وهو المعتاد في في حالة الوسوسة بالأسرار غالباً، فانتم مسؤولون عما صرنا إليه بسبب هذا الإغواء القديم، وعندئذٍ ينبري المتهمون لتسفيه ذلك الاتهام، وإلقاء التبعة على الغاوين : وقالوا : ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ فأنتم بطبيعتكم مصروفون عن الإيمان ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ نرغمكم به على قبول رأينا ﴿ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ لا ينفذ الإيمان إلى قلوبكم ، ولا تقفون عند حدكم فيما يحسن و ما يسوء ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ فقد استحققنا العذاب بما غوينا : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ ، وقد انزلقتم معنا بسبب استعدادكم للغواية ، لا لأننا نملك عليكم سلطاناً ! فلسنا عنكم بمسؤولين . هذا الحوار

(١) مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ،ص١٠٠-١٠٦ بتصرف .

كان بين أهل النار، ثم يتواصل المشهد بتفقد أحد المؤمنين قرينه في الدنيا الذي كان يريد غوايته فيجده في وسط الجحيم. فيتوجه إليه ويقول: يا هذا لقد كدت توردني موارد الردى بوسوساتك لولا أن الله قد أنعم علي فلم أستمع إليك "[1].

وهناك مشهد للخصام والحوار في سورة سبأ في قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ • قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ • وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

قال سيد قطب : "... وفي الحوار تنويع . فالذين استضعفوا يجزمون بأنهم لولا الذين استكبروا لكانوا مؤمنين! والذين استكبروا يرذلونهم وهم ينفون عن أنفسهم التهمة، "أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم" ثم يجيبونهم بالشتمة الغليظة: "بل كنتم مجرمين"! عندئذٍ ينطلق المستضعفون في جرأة يعدون عليهم آثامهم و مكرهم، ووسوستهم لهم بالليل والنهار، وأمرهم باتخاذ آلهة أنداداً لله[2].

وفي سورة غافر كذلك نجد جدلاً و حواراً بين الضعفاء الذين كانوا في الدنيا تبعاً للمستكبرين . قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ • قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ • وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ

(١) مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ،ص١٥٦-١٥٨ بتصرف.
(٢) المرجع نفسه ، ص ١٦٢.

يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ • قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: ٤٧-٥٠].

قال سيد قطب: "هنا يطلب الضعفاء من الأقوياء أن يؤدوا لهم دَينَهم، فيحملوا عنهم نصيباً من العذاب: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ ﴾؟" ويضيق الأقوياء صدراً بهذا الاستفهام المنطوي على التأنيب ويرون أنفسهم يحتملون من العذاب أقصاه، فلا مجال لاحتمال قسط آخر من نصيب الضعفاء فيطلقونها كلمة تضيق بها الصدور: ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ ويعقبونها بتسليم الأمر كله لله والتخلي عن الصفة التي يطالبهم على أساسها الضعفاء بالاحتمال، صفة العلو والاستكبار، فإن هم إلا عبيد كالعباد: "إن الله قد حكم بين العباد"! ثم يتوجه هؤلاء وهؤلاء إلى حراس جهنم، يرجونهم في ضراعة أن يشفعوا لهم عند الله، وأن يدعوه فقد يجيب الدعاء، فيخفف عنهم يوماً من العذاب. ولكن الحراس يعرفون حدود اختصاصهم، ويعلمون من ماضي هؤلاء الذين في النار ما لا يشجعهم على الاستغفار: "قالوا: ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ ﴾ وهو سؤال للتقريع والتذكير. ﴿ قالوا : بلى ﴾ عندئذ ينفض الحراس أيديهم من الأمر، في زراية وتهكم، ويدعونهم يتولون أمرهم بأنفسهم على يأس من جدوى المحاولة و الدعاء ﴿ قالوا : فادعوا ﴾!"[1].

(١) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٦٥-١٦٦، بتصرف.

خاتمـــــــة

بحول الله وقوته تمّ هذا البحث الذي بين يدي القارئ بعد كدٍّ وجهدٍ وسياحةٍ في بطون المصادر والمراجع المتنوعة التي اهتمت بالجانب البلاغي في مشاهد القيامة القرآنية خاصة علم البيان وكان ثمرة ذلك الخروج بالنتائج التالية :

- تنوع الصور البلاغية في مشاهد القيامة القرآنية .
- تصوير مشهد البعث والنشور و كأنه ظاهر للعيان مما يدخل الرهبة والخوف في النفس المؤمنة .
- وصف النعيم والعذاب في صور محسوسة و كأن المؤمن يعيشها عن قرب في رحاب الجنان ، والكافر يتلظى بلهيب النيران .
- أسلوب الجدل والحوار ظهر جلياً في مشاهد القيامة القرآنية حاملاً في ثناياه اللوم والعتاب والسخرية أحياناً والندم على ما فات .
- الصور المتنوعة تخاطب الأحساسيس و المشاعر و العقل والوجدان بحسب المقام .

وفي الختام أوصي الباحثين من بعدي بمواصلة دراسة بعض الموضوعات البلاغية التي تخص علم المعاني في مشاهد القيامة القرآنية حيث هنالك عدد من الأساليب المتنوعة .

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القران ، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي،الهيئة المصرية للكتاب،ط ١٣٩٤ه،١٩٧٤م.

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي ، دار الفكر للطباعة و النشر بيروت لبنان ،١٤١٥ه، ١٩٩٥م.

٣. بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي دار الفكر ، بيروت.

٤. تفسير ابن كثير ،دار الفكر ، ط ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م.

٥. تفسير البيضاوي، دار الفكر بيروت .

٦. تفسير الطبري ، جامع البيان في تأوبل القرآن ،مؤسسة الرسالة ،ط١ ،١٤٢٠هـ،٢٠٠م.

٧. تفسير القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن لأبي محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، بيروت لبنان ، ١٤٠٥ه، ، ١٩٨٥م .

٨. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ، د / محمد زغلول دار المعارف القاهرة .

٩. الصحاح ، الجوهري ، ط٤، ١٩٩٠، اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري، ط١٩٩٠،٤.

١٠. صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني ،(المكتبة الشاملة).

١١. في ظلال القرآن ، سيد قطب (المكتبة الشاملة).

١٢. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ابو القاسم محمود الزمخشري، دار النشر إحياء التراث العربي بيروت .
١٣. الكشف والبيان، ابو اسحاق احمد بن محمد الثعلبي النيسبوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط١، ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م .
١٤. لسان العرب ، ابن منظور، دار صادر بيروت .
١٥. مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥.
١٦. معجم أساس البلاغة ، الزمخشري .
١٧. معجم الفروق اللغوية الذي يشتمل علي معجم أبي هلال العسكري ، مؤسسى النشر الإسلامي ، ط١١، ١٤١٢هـ .
١٨. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، د / محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث القاهرة ، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م .
١٩. المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة ، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات.
٢٠. مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .